قصة قصيرة

السفر

الجزء الأول

فاضل

إدريس علي

تيه

وسراب . لا مرشد ولا طريق . نحن والمجهول . غالبا ما نضل ونيأس ثم نسترشد بنجمه أو بضيء ضوء بعيد . . صحراء شاسعة بلا ماء ولا ظل . أعشابها بلا ثمر . ليلها موحش . نهارها جحيم . والأقدام التي سبقتنا شلت طرقا محتها الزوابع . . . وأجسادنا جفت من الحرارة . فالشمس ترسل أشعتها ولا يعنيها أن تحيي أو تميت . .

يا للحكمة . . نقط هنا بعزارة ولا تير . وليبيا تير يصب فائضه في البحر . . ونقط شحيح . ونحن أيضا فائض عمالة . عشرات من الرجال كنا . . نتجه غربا . سعيا وراء رزق وفير . بينا الخرق وعامل التراحيل والمثقف والمتسول واللص . ونساء من الفجر الرحل الذين يتنقلون بين الدلتا والصعيد والقنطرة شرق . تروح شبه جماعي في السنوات التي أعقبت نكسة يونيو .

وطريق محطة وصول . ويلوعه صعب . التعب والشرطة والشمس . وفي الطريق تعارفنا نحن إبناء الحظ العاثر وجيل المعاناة . أحيانا يتعقبنا الجنود بسياراتهم السريعة . فنجري . نتفرق . نختبيء . لكنهم يكرون عائدين بعد أن يلتقطوا القربان عجرية شابة أو غلاما حديث السن . والشمس ترقص القرابين . عروس النيل في الماضي . وضحايا الفقر الآن . رحلة المستحيل . من مدن الصعيد بدأها عمال التراحيل تسطيحا فوق القطارات ثم سيرا من مطروح للسلوم فطريق الاستراحة . . ولأبعد إن أمكن . بنغازي فطرابلس وكمائن الشرطة تحيد سبيل الحظ من حيث جاء . من يضل يهلك والأكفياء يواصلون والأذكياء يدخلون المدن ويعملون .

ونداءات من هنا وهناك (حد يا وله . الحق يا وله) وتجمعنا بجوار جثه طازجة لأحد أبناء الوطن العائدين . . باغته ناعما وهشوا رأسه بصخرة . الموت تعبا أو قتلا مثل الحشرات . بعيدا عن الوطن . تركناه دون أن نلمسه ونتعرفا .

سألني صابر عن القاتل . . من يكون ؟ رجحت أنه لص . أو رفيق طريق اختلفا معا في قسمة مال مشترك . أو طالب ثأر تتبعه وتصيده هنا . أو . . . قاطعني صابر . . لأني مسطح التفكير مثل بائع أبوعوضين . لأن القاتل الحقيقي هو النفط . النفط القاتل . . عنوان فيلم . أيكون قد اشتد به الظمأ فارتوى من بئر نفط ؟ صابر هذا غريب الأفكار . لغز بأناقته وثقافته ونظارته المذهبة الإطار . سألته عن هدفه من هذا السفر المضني فلم يرد . تعرفت به في قطار الأحد المتجه للسلوم . ونحن نختبيء قرب السلك الشائك لنعبره ليلا . سمعنا أنينا وبكاء تتبعنا مصدره فعثرنا على سالم أبوعضين — تائها — يتمرغ داخل حفرة ويلطم خديه كذابه . يا راجل عيب . استظر . الدنيا وحاظا . الدوام لله . بعد مجهود نجحنا في فرملة دموعه تمسكنات الأمثال . وأخبرنا أنه لم يفقد عزيزا . فعلام أقام هذه المناحة ؟ حين أطمأن لنا . . روى مأساته باكيا : بالأمس كان معه الف دينار وحقيبة مليئة بالهدايا . . حصاد عامين في الغربة والشقاء . . وما أن عبر السلك . ودخل حدودنا حتى وقع في كمين حرس حدود بسبب الظلام . . أوسعوه ضربا وصادروا كل ما يملك من مال وهدايا وتركوه اشفاقا بدلا من السجن والبهدلة . . المسكين كان يحلم بقيراطين أرض وجاموسة . . لا شيء الآن . . كله ضاع . حزنت . وواسيته وانفعل صابر وطالبه بأن يشكوهم . لأنه تعرض للسلب وليس للمصادرة .

— معقول اشتكي الحكومة يا بيه . . ؟

تحايرة . بأناة . . حاول صابر أن يقنعه ويحرك البركة الساكنة في عقله . بلا فائدة (قسمتي كده وأنا أصل وشي نحس) توتر الموقف وكادا أن يتأسكا وسبه صابر :

غور في داهيه . . رجعونا ألفين سنة لورا . لم يغر وتشبث بنا مستجديا مرافقتنا لكي يجرب حظه مرة ثانية . فلبيناه على مضض لأنه أصبح عبئا على زادنا القليل . بعد عبورنا الحدود . نظر صابر للشرق متنهدا كعاشق يفارق حبيبته مضطرا .

بعد نحو اسبوعين من السير المتقطع وقفنا جوعى متعبين عند مشارف طبرق . ننتظر حلول الظلام لندخل المدينة متسللين . وسمعنا من ينادي ويطلب منا التجمع . . (تعال يا مصري) جائع أو عطشان بدأ بالتقدم . . ومن خلفه خرجنا من المكامن واحدا خلف الآخر . وبتردد وخوف كنا نجالس بدويا . . قدم لنا الماء المثلج والطعام والتفاح والدخان . . فجاء المزيد من الجياع . ظل ينكت باللهجة المصرية ويعرفنا بنفسه : الطويس مبلود الشياني . . أشهر واحد في الصحراء بعد عمر المختار الذي دوخ الطليان . وأنا دوخت دولتين . . هربت الماشية من عندكم والدخان من عندنا . . وثبت الآن مكتفيا بعمل الخير . وحدثنا عن حبه لمصر . . الدق . . النيل . . الملاية اللف في الموسكي وبولاق . . والاسطا المتلمة . والأهم . . فروجته فلاحة مصرية من الشرقية . وبدكاء أحد بفرزنا : هذا تجار . . أنت حداد . . والآخر مبيض وأشار لي قائلا : لا أرتاح لأمثالك . . فأنت لا هذا ولا ذلك . . وتبدو كالشعراء أخدمك لله وأخمك لأسطي يعلمك شيئا ينفعك في المستقبل . ثم التي قبلنا مرميا على كتف صابر : وأنت أستاذ ممن يثيرون المتاعب . . فلا تقع منك . تعذق بالتحلل فأحاذك محاملة لإخواتك . . أو أسلمك للشرطة .

طول الطريق وهو يوصينا بالإخلاص وأنتم لنا ونحن لكم . كنا نتشد المأوى والأمن . فلم نسأله عن وجهتنا أو نساومه على أجر . وانهمينا في حوش كدسنا فيه مع آخرين أتى بهم قبلنا . ثم جاء برجل عرفنا به : الحاج محمد الغرياني أشهر مقاول في البلاد وهو من سيتعمل معه . فدخل بينا . فاحصا . سائلا . محاولا إيهاد الرضى والمسين والأقدمية فاعترض الطريق . لأن الاتفاق تم بالجملة . أفلتت منه الكلمة . فأدركنا أنه مجرد سمسار استبدل الماشيه بالبشر . فريح من وراننا بغير سفر ولا مكابدة . وهل كنا في وضع اختيار سألنا المقاول منفرنا :

— شن تبرا تخدموا ؟

— كل حاجة . .

— باهي . . وقديش تأخذوا ؟

— اللي تشوفه . .

— باهي . . وتوا تسمولي بلادكم وتخلقوا على القرآن .

تعارفنا وتصارحنا وحللنا . هو أيضا يحب الأزهر والحسين وأم هاشم . رجل ذكي يتقن الردود ولا يغضب أحدا . يسألك عن موطنك . إن كنت من بحري قال كرماه . من قبلي قال رجال . في اليوم الثاني وزعنا للعمل قبل أن نرتاح من عناء السفر . استوقف صابر وسأله متعجبا :

— وأنت شفي يا شاب . . ضابط استخبارات ؟

فرغ صابر وضحك هو . ثم عينه كان للأجور ومراقبا للوقت . لبثنا معه عامين وشهورا . نشيد البيوت والمدارس ونتنقل بين المدن من بنغازي شرقا إلى سبها جنوبا . كلنا نعمل ونحلم ببيت أو عروس أو قطعة أرض . وأبدا . أبدا . . لم يدر في خلدنا بأننا سنتعرض لعملية خداع بشعة . فذات ليلة . ونحن في سبات عميق . بعد عمل يوم شاق . داهمنا الجنود وجمعونا للترحيل بالقوة :

— انهض يا مصري .

— أوراقك .

— أركب يا فوال .

— ملعون والديك .

— قدمتم علينا البلاد .

— سكر فمك . .

تور . نحتج . نرجوه وصابر يتقدم طالبا المثول . فيتساءل حكمدار القوة بازدراء :

— خير الفوال اهادا ؟

فيبسط له الأمر . يؤالف . نحن . المال المدخر . الأمانة . الأخوة . وأننا عملنا وكدحنا ومدخراتنا كلها في حوزة الحاج وأننا لن نرحل طبعا بدون الفلوس . .

— فلوس شنو . جنتوه معاكم من بلادكم ؟ جتنا مفلسين . . هذا صحيح . لكننا شيدنا . تعبنا . عرقنا . واقترضنا أن الفعة الواحدة والجواز . هما جواز سفر . بالتأكيد الغرياني لا يدري . . وسيروح لنجدتنا بمجرد وصول الخبر إليه . وللتمس من المأمور . أن يبعث بمن يخبره فيرفض قائلا :

— وين ندري عليه ؟

كيف لا يدري وهو من المشهورين . لا نصدق أنهما متواطئان الحاج الذي حلف معنا . وكان يزعم أن ما يجب المصري رغم طيبته هو تركه للصلاة . فمن لقمتنا يوزعه . لم نناقشه في الاتفاق الذي أبرمه معنا . يدفع بموجبه ربع الأجر يوميا . والباقي يظل مذخرا معه حتى انتهاء عملنا معه يسلمه لنا نقدا في السلوم بعد أن يوصلنا بسياراته لكي نجتنا متاعب الطريق . فمن رأيه أن سيولة المال في الأيدي تشجع على لعب الميسر والسرقات وشراء ما ليس له لزوم . وثمنا طعامنا . . القسم الذي تم بينا على كتاب

رسوم نجيب فرح

... ودفاتر الحسابات التى تجوزة صابر وعشرات التصرفات الذكية التى تسلل بها إلى قلوبنا وحدرنا بها . وأتضح فيما بعد ، أن ما يعيبنا ليس هو ترك الصلاة ، إنما حسن الظن بالغير للدرجة الغبط . والشائعات تدور بيننا ، بأن هذه عادة المقاولين مع الذين يأتون (سلكاويه) مثلنا . وليسا أولى الضحايا ولا آخرهم . وأن ثمة اتفاقا فى هذه الحالات بين المأمور والمقاول ، ومما يعزز ظنونا أن سالم أبو عوضين . كان قد قرر الرحيل بعد شهر نظريا فظل العريان يراوغه ويتهرب منه بحجلة واحدة لم تنفع : باهى يا سيدى . غدوة الحى وقتى .

وهذا هذا لم يأت قط حتى وقعت الكارثة . فأصبح سالم ضحية الظروف للمرة الثانية . وحين ركبنا الناقلات ، القوا بسالم وسطنا عنوة . والناقلة تسرع بنا ، تنهب الطريق حاملة فى جوفها العديد من الرجال المحطمين الذين يجلسون فى ذهول . وبيننا ثلاث عجريات تحمل عارضى النسول والشعوذة والدعارة . ومعها كذلك سيدة قاهرية جميلة . قصت لنا مأساتها باكية خلال الطريق .

رغم

العلاق المبعدين على ذاتهم وتفكيرهم المتواصل بما كان وسيكون ، فالسيدة تجهل ما بنا وتروى بلوتها لتعمق الجرح النازف فى قلوبنا .. فتشعر بفداحة ما نزل بنا .. وبنا ، فإن صمتت ، اطلقت العنان لدموعها . وأبكتنا معها ، وإن تكلمت .. لعنت أهلها الذين باعوها بجهاز تسجيل وكمية من الملابس النايلون وجنيهات لم ترد على المائة ، وسلموها لغريب يجهلون عنه كل شىء ...

يرهم بسيارته الفاخرة التى فرحوا بركوبها كالأطفال . فلا تدرى أى نوع من الزواج تم بينهما . أدخلها بلاده خلسة واكتشفت هناك أنه بلا عمل ولا تجارة . وأنها ليست أولى زوجاته المصريات ، وحين شبع منها ، حاول تقديمها لذوى النفوذ فى السهرات الخاصة ، ولما أبت متمسكة بشرفها ، أخذ يقسو عليها فلجأت للشرطة طلبا للحماية . فتكرر هذا ولم يكن معها ما يثبت حجتها .. فأبعدوها .. تعجبنا لهذا الأهل ولهذا الفقر الذى شردها .. وشردنا . ونظرت إليها فلة بعدم تصديق ، وصابر أصغى إليها باهتمام ، وشملها بعنايته .. وذلك حين سادت نبة البعض نحوها .. بالقول الخشن والحركة العامرة .. فهى فاتنة ومكانها أميرة فى قصر وليس هنا بالطبع . ومن البداية والسائق والخارسان يدورون حولها . عطلوا الناقلة لتصبح فى نهاية القول ، ثم توقفوا بأعذار مختلفة .. مرة زيت ومرة ماء أو بنزين . وفى إحدى الوقفات .. جاءنا الخارس متمتما :

– الاحوان بخير ..

شكرناه بامتنان رغم الجرح الذى لن تداويه الآف التحيات ..

– والست هانم مستريحة ؟

تعامرت العجريات وامتطرت النظرات المتعجة على وجه السيدة الأبيض الفسيح وعيونها المصرية الجميلة . فجرأ السائق وقفز جالسا على حافة مؤخرة الناقلة مقتربا من الركاب . ومستسرا عن احوالهم . وحصها بسؤال منتعما – ما تنيش أى خدمة ؟

موقف مريك ومؤال محشور يزيده ارباكا . نضحت العجريات غيظا وحسدا . وتلفت الرجال فى حيرة وسألنى صابر بعصبية عن معنى وقوفهم المتكرر . فمن ادراك ؟

لست مكلفا بمتابعة تحركاتهم . وتفسير نواياهم . أمور أخرى تشغل فكرى وتقلقنى ، الأهل والعروس المنتظرة وفى سالم أبو عوضين الطويى الوغد حمار البشر الذى باعنا لمن هو أحس منه ، العريان الحقير الذى أثرى من ورائنا مستغلا ضعف موقفنا ، وأفكر فى الذين ضللوا وهلكوا أو صرعهم حراس الحدود من الدولتين .. جثث مجهولة طوتها رمال الصحراء .. لا أسلت جفون اصحابها ولا بكاهم مخلوق ، أن يقفوا أو يسيروا ستصل حتما لمكان آخر فوق سطح كرتنا الأرضية المكدودة المليئة بالغادرين واللصوص والكلاب وفى وطننا أيضا مقاولو الفار من موردى البشر الذين يأكلون عرق الكادحين ويثرون . هنا أو هناك . فنحن تحت رحمة من يملك . وصابر هذا الثائر . سيموت حتما فى نوبة غضب

أو يشق ، لكن ماذا وقفوا حقا ، نحن الآن عند نقطة مجهولة في الصحراء بين طرابلس وبنغازي . بعد مغيب الشمس . والظلام زاحف نحونا ولا زبالة ضوء تبشر بالأمل حتى النجوم حجبتها السحب . منذ وقت طويل قطعنا هذه القفار سيرا حتى تورمت أقدامنا وكدنا نهلك وكنا نحلم بعد أفضل . فذهبنا ضحية لمخترع الأختراعين ، فهل نحن مخلوق أحط من هذا الغرباني ؟ وهذه العادة القاهرية . كيف هانت على أهلها فباعوها بجهاز تسجيل ! فهل بدأنا في تجارة الرقيق الأبيض باسم الشرع ؟

– أهلا وسهلا يا عرب .

السائق ورفيقاه يرحبون بنا . أمرونا بالنزول للاستراحة والتهوية فأطعا مترددين . حطوا واشعلوا نارا وضعوا على جمرة يرادا للشاي وجلسوا يستدفئون ويتسامرون . ظلام مشجع لارتكاب البشع الحرائم . فهل نحن مقبلون على أمر جلل ؟ هب أنهم وليس بحق علينا أطلقوا النار وابادونا فهل للموم الدنيا من أجلنا ونعلم ؟ لا شيء بالمرة . فمن يدري بوجودنا هنا وفي بعض المحافظات . يعيش المسلمون شبه أسرى في المزارع والمشاريع . من يحتج أو يطالب بحق ، تلفق ضده تهمة السرقة أو سب الزعيم أو مغازلة النساء . وفي أقل الأحوال ضررا يسلم للشرطة لكي يرحل بلا حقوق طافت برأسي فكرة شريرة . . أن أهرب واعود للغرباني لاخرز استاتي في عروق رقبته واظل اشرب من دمائه وأشرب حتى ارتوي واستريح . . تلفت أفكاري لصابر الذي كان مشغولا بالسيدة ورفض أن يتركها تحفردها لأي سبب

أخوا علينا تمشاركنهم . فجلسنا في شبه دائرة نحتسي الشاي على الطريقة البدوية . بينما اعتصم سالم بالصمت . ولابد أن أفكارا مدمرة كانت تراوده منذ . والسيدة جلست فوق حركن ماء فتسابقوا على خدمتها والفوز برضائها . أنثى حقيقية . من تملكها فاز بالدنيا . وأعجب كيف باعوها بثمن بخس ؟ ولو عدنا بها لعصر الجواري . لدفع الأمراء والملوك . لقلها ذهبا . وتحيرا للقاء حيث نحن لأطول مدة ممكنة . توسعوا في تكريمنا بالطعام والدخان . ثم بزجاجتي ويسكي . قدمها البعض طلبا للنسيان والدفء ، أو لغرد التجربة السائق ابتلع عدة كئوس بسرعه وقال للسيدة مترنحا

– على الطلاق أنتي تساوي حقل بترول .

ابتسمنا نحن وضحكت هي لأول مرة فكر السائق وهلل وسكب في جوفه مزيدا من الشراب . والق الرجال بهمومهم ونسوا ما كان . واعتبروا ما لا قوه شذوذا . والقاعدة ما نحن فيه الآن من وئام . ابلغونا امانة توصيل نجاتهم الحارة لسكان الوادي وابطال السويس (وياقة تزوجوني بنت عمكم هادي . وأنا نريد زوجة مصرية من الريف . وأنا عندي صديق في اسكتلندا تسلموا عليه .) ذابت الفواصل وأزيلت الأسلاك والغيت جوازات السفر وتوحدت اللهجات . مرت بنا إحدى تأقلات الترحيل العائدة من الشرق فاستقبلوها على بعد وأتونا منهم بأناء مزعجة . فجميع الذين رحلوا قبلنا تعرضوا لتفتيش دقيق في جمرك مساعد وبوابة الحدود المصرية . ومن يحالفه الحظ هنا يسوء مع هناك . قلق خوف وتنشط في تجنة ما تبقى معنا بشق الطرق . وتسللت العجريات خلف ستر عجة قضاء الحاجة فاستقبل السائق أول العائدات منهن بتعليق ساخر حيث

– دمتي القروش وين يا حرمه ؟

ارتسمت بسمة فائرة على شفاه الخاملين . وظل صابر في عبوسه وتجهمه ولم يذق طعامه ولا شرابهم

نذير فيكم معروف

– لابد نساعدكم

– كلنا اخوة وعرب .

هم الذين ابلغونا بالخطر المحدق ثم القوا على باطوال النجاة . فتدافع بلا نرو نحو هاوية الأمل . وبالذات العجريات ، والذين لم يجدوا وهم قلة . أما نحن . ضحايا الغرباني . ادخرناه من ربع الأجر . كان كافيا لتوصيلنا إلى بيوتنا في أمان .

ورسموا خطتهم على أساس أن نمر أولا من جمرك مساعد بدون تفتيش ثم لن يسلمونا إلى ذلك لبوابة الحدود المصرية كما هو متبع . فهم سيتجهون بنا بعيدا عن البوابة وتقط الحراسة ناحية سيد عمر ، وسيفعلون ذلك لأننا أولا حلال وغلابة ونستحق المعاونة وثانيا جهة البادرة الطيبة منهم . رقصت عجوز واسكندراني وغنى صعيدي وتكت فلاهري ضحكنا وسعدنا لدقائق . احتسناها عنوة من ايامنا المثقلة بتركة أجيال انقرضت . ومعانا واقع الليل . وهموم أجيال مازالت في حلكة الغيب . وصابر هو الوحيد الذي لا ضحك أو شاركنا بالتصفيق . فلم يفكر بالرقص ؟ فهذا أمر مبهم بالفعل رغم الطرب والرقص والبشرة التي ترسي بالإحباط . وجاءت المقدمة بطلب معلف بالشفقة من السائق للسيدة . أن تتفضل معهم في الكابينة لكي تتجنب المطاردة في المسافة الباقية . أقول الصدق . لم يثر في جلد الكثيرين أمر حيث . لأن من الطبيعي ركوب السيدات بجوار السائق في الثلاثة والشرارة أشعلتها فجرية . غاظها أن تمر امرأة واحدة بهذه الخفارة .

– والشعبي هي . ؟ ما أحنا برضه حرام ؟

قالتها بمنتهى مكشوف وردحت . فتكهرب الموقف وتنبه العاقلون . فتوتر صابر وسعل معلنا عن وجوده . لم يكن الموقف قد تحرج بعد أو انكشف غموضه . فراح الليل أو سوء تأويل سببه الشراب . فقد يكونون حسني النية وحسن الظن . فالسيدة صاحبة الشأن ما زال تتفقد ملابسها وتسعيد هندامها . ولم تنت في الدعوة بالرفض أو القبول . والقرار لها لكن السائق فقد صوابه فتسرع وجذبها بخفوة وتوتر ناحية الكابينة . وكأن هذه الخلسة تما تخلها من طعام وشراب ووعود . كانت رشوة مدفوعة سلفا ليقدموا بها سكوتنا وحيادنا على جرائم اخلاقية . سنركب على مشهد منا وتوافقنا .

البقية في العدد القادم

شركة مصر لأعمال الأسمنت المسلح

التي كانت إحدى الشركات الرائدة لبنك مصر

يسعدها أن تتقدم بأخلص آيات التهاني إلى أسرة

بنك مصر

بمناسبة مرور

٦٠ عاما

على إنشائه

راجية له دوام التقدم من أجل رفاهية شعب مصر وتدعيم صرحها الاقتصادي